الظَّالِعُ والضَّلِيعُ
العلاقاتُ المختلفةُ بين المقاماتِ المؤتلفةِ

د/صيته العذبة

- جامعة قطر -

الملخص:

تتخذُ هذه الورقةُ البحثيّة من المقاماتِ المشتركةِ -في أسمائها- بين الهمذاني والحريري مادةً لها وهي: الكوفية، والبغدادية، والبصرية، والحلوانية، والساسانية، والشيرازية.

وتنطلقُ من فرضيةٍ مفادها: أن الحريري كان واعيا لهذا التناص، وهو يتبع الهمذاني قصدًا في اختيار ذات اسم المقامة، هادفًا إلى إبرازِ تفوقه على الهمذاني، وهو يتتبعُ فكرة المقامة ناقضًا لها، ومحاولًا تجاوزها بما يثبتُ هذا التفوق، في فكرةٍ مختلفةٍ كل مرةٍ باختلافِ فكرةِ المقامةِ عند الهمذاني.

الكلمات المفتاحية: الهمذاني، الحريري، المقامة، المقامات، الموازنة بين الهمذاني والحريري.

1. في البدء..كان حديث:

كتب الهمذاني مقاماته مبتدعًا لونًا جديدًا في الأدب العربي، كتبَهُ وليدَ حاجةٍ أو ضغطٍ، أو تعبيرًا عن موقفٍ فكريٍّ ما،أو غير ذلك مما اختلف حوله المؤولون، ثم جاء الحريري مقلدًا أو متبعًا أو مطورًا أو متبنيًّا أو هادمًا، أو غير ذلك مما اختلف عليه المؤولون كذلك([1]).

كان هو الظالع (بالظاء المعجمة) الذي اتبع الضليع، الظالع المقدَّس في تلقي عصره، المُكَدِّس في تلقي عصرنا، فقد كان غرضه-بحسبِ غير قليل ممن قرأوا المقامات- تكديس الألوان البديعية دون أن يكون له حسُّ الهمذاني وفلسفته، من بعض ذلك ماقاله بلند الحيدري: "إلاَّ أنَّ طغيان التكلف على مقامات الحريري قد ذهب ببعض رونقها، وكذلك ميله الشديد الى الزخرفة اللفظية،والتنطع فى إقامة جمله ، وتأكيد الصناعة تأكيدا مبالغا فيه ...مما هبط بمنزلتها عن منزلة مقامات الهمذاني في نظر غير واحد من الذين أقاموا المقارنة بينهما"([2]).

ومثل ذلك نجده بتوسعٍ عند عبد الملك مرتاض في كتابه (فن المقامات)، ومن ذلك حين تناول جانب السجع في المقامات: "السجع في الهمذانية مليح خفيف رشيق مقبول لأن أثر التكلف عليه لا يكاد يبين. وفي الحريرية مقبول أحيانا، وسمج ثقيل بارد أحيانا أخرى"([3]) وفي مكان آخر يقول عن السجع وارتباطه بالتصوير والمعنى، في إشادة بالغة بالهمذاني: " لم يحل هذا السجع، عند البديع، قطّ بين التصوير البياني الرائع، والوصف النفسي الدقيق. فقد كان البديع يتسامى بسجعه إلى ذروة الكمال السامقة"([4]) ثم يصف أسجاع الحريري وتعبيرها عن المعاني بقوله: "السجع عند الحريري أثقل موقعا، وأغرب مخرجا، وأضعف تعبيرا عن المعاني، فكان كثيرا ما تتعثر به المعاني، وتظلع ظلعا مزريا أحيانا"([5]) ويذكر في مقامٍ آخر أن الهمذاني لم يهتم بالجناس بينما كان الحريري مولعا به إلى الحد الذي لم يكن يبالي معه بتعثر معاني الألفاظ أو ثقل الأسجاع وسماجتها([6]). وورد عند مرتاض كثير من ذلك، في محاولة لإثبات تفوق الهمذاني على كل من كتبوا المقامات بعده بشكل عام، والحريري بشكل خاص.

كان هذا هو رأي بعض نقادنا المحدثين في الحريري، ولكن ماهو رأي الحريري في نفسه، وهو من يقول في المقامة الحجرية([7]):

باللهِ يا مُهجةَ قلْبي قلْ لي هلْ أبصرَتْ عيناكَ قطُّ مثلي
يفتَحُ بالرُقيَةِ كلَّ قُفْـــلِ ويستَبي بالسّحْرِ كلَّ عقْلِ

ويعجِنُ الجِدّ بماء الهزْلِ إنْ يكُنِ الإسكَندَريُّ قبْلي
فالطّلُّ قد يبْدو أمامَ الوَبْلِ والفضْلُ للوابِلِ لا للطّلِّ

فالرجل كان يستشعر فضله وتفوقه، مزهوا بنفسه وببراعته، فهاهو يقوّل بطله عن الإسكندري مايريد قوله عن الهمذاني، لذا أزعمُ أن عمله في متابعة مقامات الهمذاني كان مقصودًا ومدروسًا، وهو يتناص معه في أسماء مقامات ست: الكوفية، والبغدادية، والبصرية، والحلوانية، والساسانية، والشيرازية.

وفي هذه الورقة البحثية سأحاول تتبع صنيع الحريري (الظالع) في تتبعه للهمذاني (الضليع)، وهو من قال في مقدمته الشهيرة: "أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع"([8])، فإن أقر منذ البدء أنه ظالع، فكيف استشعر التفوق على الضليع؟وكيف سار في تتبعه؟ وما التأويلات التي قد تخترم مسارات تلقي المقامتين المتشابهتين اسما، المختلفتين إنشاء؟ وما هي العلاقة الأبرز التي تربط هذه المقامات؟

هذه هي الأسئلة المحورية التي شغلت بال هذا البحث، وحاول أن يجيب عنها حينا، أو يثير حولها أسئلة أكثر أحيانا أخرى، فطريق المعرفة الحقَّة، يبدأ دوما بالسؤال.

2. العلاقات المختلفة بين المقامات المؤتلفة:

2. 1 : المقامة الكوفية (علاقة المشابهة والمضاعفة):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	الخامسة ص 34	الخامسة كذلك ص 47
الزمن	تدور الأحداث ليلا في ليلة واحدة	ليلا كذلك في ليلة واحدة.
المكان	مدينة الكوفة العراقية	ذات المدينة
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام	كذلك كان الحارث والسروجي

	والبطل الإسكندري كانا مشاركين في الأحداث	مشاركين في الأحداث
حضور الشعر	ثلاثة أبيات في ختام المقامة	أربعة وعشرون بيتا توزعت في المقامة.

كان مع عيسى بن هشام رفيق واحد، بينما رفقاء الحارث مجموعة من البلغاء والفصحاء. فيُطرقُ البابُ، وخلفه سائلٌ محتاجٌيتعرفه الحارث بن همام في منتصف المقامة أنه أبو زيد، وعيسى بن هشام في أخر المقامة أنّه أبو الفتح الإسكندري، لأنَّ فتح الباب تلا مقالة الطارق، التي أبهرت السامع، ولم يكن أيًّا من البطلين متنكرًا، فتم تعرفه حالا.

وفي حين انتهت كوفية الهمذاني عند فتح الباب وتعرفه أبا الفتح، فقد كان فتح الباب في كوفية الحريري بداية لاستمرار أبي زيد في إبهار سامعيه بمقالته.

إن الغاية من المقالتين هي الاحتيال وادعاء الحاجة للحصول على المال، وفي حين كانت حجة أبي الفتح بسيطة، كانت حجة أبي زيد مركبة، وهو يبتدع قصة ابنه الذي لم يعرف عنه ويحتاج لأن يعيده لحضنه.

وتنتهي المقامتين بمعرفة الراويتين أنَّ بطليهما يخدعانهما؛ فالإسكندري ليس فقيرًا، والسروجي ليس له ابن.

الشعر في مقامة الهمذاني لم يتجاوز ثلاثة أبيات في أخر المقامة يشير فيها إلى غناه الفاحش، بينما بلغ عدد أبيات الشعر في كوفية الحريري حوالي أربعة وعشرينبيتا..

وهنا نشير إلى فرق الطول بين المقامتين؛إذ تبلغ مقامة الحريري ثلاثة أضعاف مقامة الهمذاني ووصلت أضعاف الشعر إلى ثمانية.

ونستطيع أن نوجز العلاقة بين كوفية الحريري وكوفية الهمذاني في ثنائية: (المشابهة والمضاعفة)؛لأنه يبدو واضحًا تمامًا أنَّ الحريري قصد في كوفيته متابعة كوفية الهمذاني ومشابهتها في الأحداث، ولكن باتباع نمط المضاعفة:

- يكون مع عيسى بن هشام رفيق واحد، فيكون مع الحارث رفقاء.
- يتخفف ابن هشام من الوصف، ويضاعف الحارث منه.
- تكون حجة الإسكندري بسيطة وهي الفقر والحاجة للمال، فيزيد عليه السروجي بسبب قصصي –قصة الابن المزعوم- لحاجته للمال.
- تنتهي كوفية الهمذاني بفتح الباب، فيزيد الحريري بما بعد فتح الباب.
- يقول الإسكندري بيتين، فيقول السروجي أربعة وعشرين.

فتكون نقطة الانطلاق واحدة، لكن الحريري حاول أن يتجاوز حدَّ المضمون السردي عند الهمذاني، والشكل التالي يوضح الفكرة المقصودة:

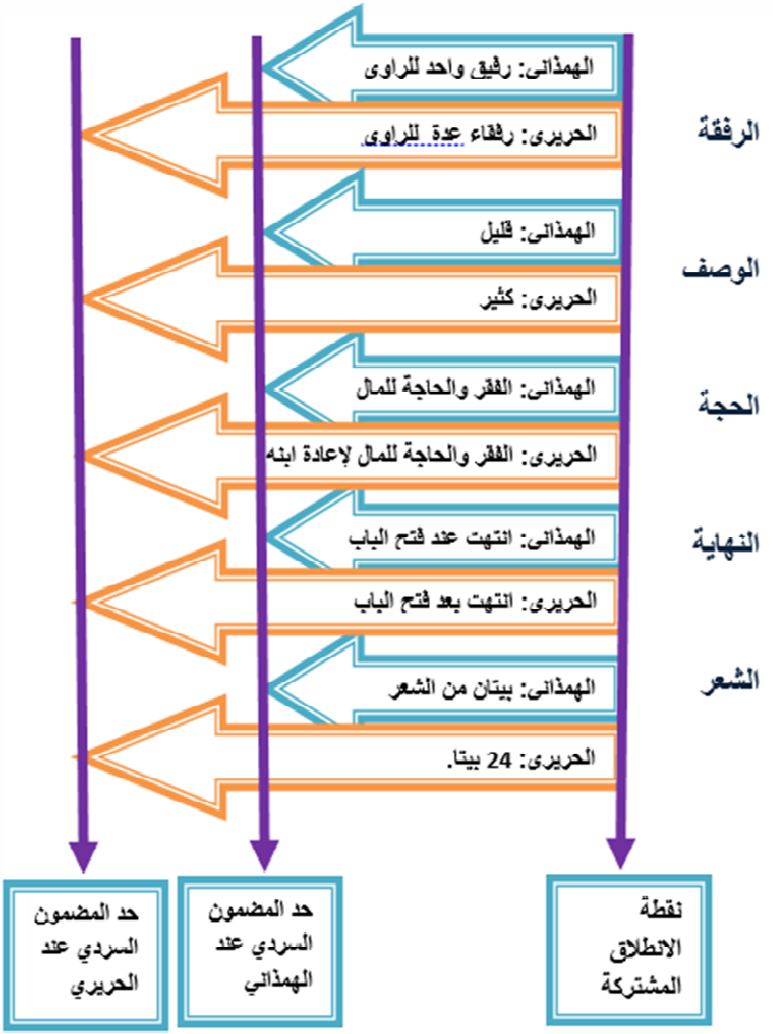

هذه هي المضاعفة الظاهرة، فماذا عن باطنها المكثف؟وما المقصد من المتابعة ثم التجاوز؟ هل هو نوع من إثبات الذات؟ لأنه لو كنت سأتابع كاتبًا ما في إبداعٍ فكريّ ما، ثم سأقدم مثل ما جاء به، فما فائدة ماجئت به إلاَّ أن أقدم زاويتين لذات الفكر والصورة؟

ثم لماذا يكون رفيق ابن هشام صوفيا، ويكون صحب ابن همام أهل فصاحة وبلاغة، هل لهذا الاختيار دلالة؟ هل نعدُّ ذلك استمرارا لنمط المضاعفة؟ هل رأى الحريري أن صوفي الهمذاني المسكوت عن صفاته، يحتاج لجمع من الفصحاء-الذين غذوا "بلبان البيان، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان"([9]) - لمواجهته، والتغلب عليه بسلاح المضاعفة؟؟

2. 2 : المقامة البغدادية (الإحاطة):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	الثانية عشرة ص 29	الثالثة عشرة ص 128
الزمن	تدور الأحداث نهارا في نصف نهار	نهارا كذلك في نصف يوم.
المكان	الكرخ من مناطق بغداد تقع على ضفة دجلة.	الزوراء لقب لمدينة بغداد
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام كان هو بطل هذه المقامة	كان الحارث والسروجي مشاركين في الأحداث.
حضور الشعر	بيتان في ختام المقامة	سبعة وعشرون بيتا توزعت في المقامة

يختفي أبو الفتح في بغدادية الهمذاني، ويكون بطلها هو عيسى بن هشام الذي يحتال على سواديٍّ حتى يأكل على حسابه، وتنتهي ببيتين شعريين يشيد فيهما عيسى بن هشام بصنيعه، ويصفه بالعمل العظيم،وتحدث في الكرخ نهارًا في بغداد.

بينما تحدث بغدادية الحريري في أحد ضواحي بغداد -دون تحديدها باسم-نهارًا أيضا.وتحكي احتيال أبي زيد على الحارث بن همام وصحبه البلغاء الذين خرجوا للفرجة حين تنكر في هيئة عجوزٍ تشكو الحال والترمل، ويتبعه الحارث ليكتشف احتياله، وهو يخلع تنكره في مسجد خال. أمَّا الشعر فقد بلغ سبعة وعشرين بيتا توزعت في ثنايا بغدادية الحريري.

ويختفي الإسكندري كليًّا هناك، فيظهر أبو زيد متنكرًا هنا. تحدث مقامة الهمذاني في قلب بغداد، وتحدث مقامة الحريري في ضواحيها، وكأننا بصدد أمرٍ أشبه ما يكون بدائرةٍ تحيط إحداهما بالأخرى، كما يعكس الشكل التالي:

فما دلالة ذلك؟ هل هو استمرار من الحريري في استخدام أنماط مختلفة من الإحاطة بما صنعه الهمذاني؟وهل كان الحريري يدرس مقامات الهمذاني قبل أن يشرع في مقاماته؟ وهل كانت نصب عينيهأنموذجًا يقيس عليه؛ ليحاول تجاوزه؟

ومادلالة حضور المرأة في بغدادية الحريري وهي لم توجد في مقامة الهمذاني؟ وأيّ بعدٍ مقصودٍ لحضورِ امرأةٍ اختفت هناك؟ امرأة بزي رجل أو رجل بزي امرأة!

يتقنع ابن هشام بقناعٍ معنويّ أنه يعرف رجلا ليحتال عليه، ويتقنع أبو زيد بقناعٍ حقيقيّ على رجالٍ ليحتال عليهم كذلك، في تبادلٍ مقصودٍ للأدوار يرسل رسالةً مخفيةً، وليُفهم ما أعني إليه، لننتبه قليلا إلى ما يلي:

هناك ثلاث مراتب في المقامات - كما أراها- أعلاها السارد الذي يمثله الحريري والهمذاني، ويليه الراوي الذي يمثله عيسى والحارث، ثم يأتي في المرتبة الثالثة أو قاعدة الهرم أبو زيد وأبو الفتح، فيما يشبه الشكل التالي.

والحريري في مقامته وكأنه يوجه رسالة ما للهمذاني: إن كان راويتك بنفسه سيتنازل إلى مراتب المحتالين ويحتال، فإنَّ بطلي سيفعل ماهو أفضل منه وأحكم، وإن كان راويتك سيحتال على رجلٍ سواديٍّ بسيط التفكير، فإنَّ بطلي سيحتال على مجموعة من أهل العلم والفصاحة والبلاغة، فأيهم الأعظم والأفضل! وإن كان بطلي يتفوق على راويتك، فإنَّ راويتي سيتفوق عليك، بينما أنا لا يوجد من ينافسني!

فنصل حينها إلى لب مقصد الحريري، أو ما نظنه كذلك، لأن الأمر هو مجرد تأويلات، لا مجال فيها لخطأ أو صواب.

2. 3 :المقامة البصرية (علاقة البدء والختام):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	الثالثة عشرة ص 52	الخمسون والأخيرة ص 548
الزمن	يبدو أن الأحداث تدور	تدور في زمن متطاول

	نهاراخلال يوم واحد	
المكان	المربد في ضواحي البصرة	بين البصرة وسروج
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام والبطل الإسكندري كانا مشاركين في الأحداث	كان الحارث والسروجي مشاركين في الأحداث كذلك.
حضور الشعر	ستة أبيات توزعت في المقامة	اثنان وخمسون بيتا توزعت في المقامة

تبدو هذه المقامة كما لوكانت أول مقامات الهمذاني مضمونيا وفكريا، فعيسى ابن هشام يشير فيها لشبابه وفتوته، وتحدث هذه المقامة في المربد في مجلس شباب وشرب. كانوا يتنزهون، ثم جلسوا في متنزه، فجاءهم الاسكندري الذي أخبرهم أنه من بلاد الإسكندرية ويشكو الحاجة.

ولم تبدُ في هذه المقامة أي من معتادات المقامات من التنكر ولحظة الكشف؛ لأنّه بداوكأنه يتعرف الإسكندري لأول مرة. وحينها يحضر سؤالٌ ملحٌ:لماذا يتمّ تعرف الإسكندري في البصرة، وفي المربد تحديدًا؟

هل يحيل إلى شيء ما في الذاكرة الجمعية؟ أسواق المربد؟ ومنافسات الفصاحة؟ وكأن الإسكندري الذي ينتسب إلى عالمية الإسكندرية، يولد كشخصيّةٍ فنيّةٍ في هذا المكان؛ في المربد.

وإن كانت هذه تبدو أول مقامات الهمذاني في التسلسل الفكري، فإنّ بصرية الحريري هي آخر المقامات ترتيبا ومضمونا، والغريب أنها تسمى "البصرية" وليست السروجية، رغم أنها تحدث في مكانين، والأهم فيهما سروج، ربما لأنَّ الحريري قصد أن يكون اسمها البصرية، لهدفٍ نتعرفه لاحقا.

فبصرية الحرير يتنهي خطًّا تصاعديًّا فيما يشبه فكرةً لروايةٍ ما، توزعت في فصولٍ بدأت بالصنعانية-المقامة الأولى- التي تعرف فيها الحارث أبا زيد، وانتهت بالبصرية التي ختمت

مسيرة المقامات بتوبة أبي زيد وهجره لحياة الاحتيال والذنوب-كما قال- إلى القرب من الله عز وجل.

ترتسم بين المقامتين علاقة البدء والختام، فأحداث مقامات بطل الهمذاني القادم من الإسكندرية بدأت في البصرية، بينما انتهت مقامات بطل الحريري –القادم من سروج- في مقامة سُميت البصرية ، مع أنها انتهت فعليا في سروج، في خطّ علاقةٍ تحتل فيه البصرية واسطة العقد ؛ فهي تبدأ مقامات الضليع، وتنهي مقامات الظالع.

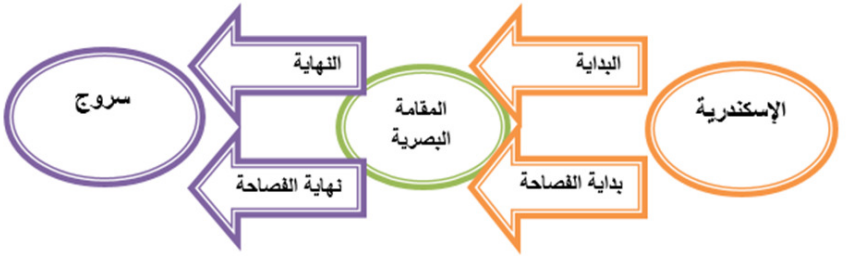

وكأنَّ الحريري يشير إلى فكرة مؤداها: إن كانت الفصاحة قد ولدت في البصرة مع مقامات الهمذاني، فهي تموت في البصرة كذلك، ويكون ختام الفصاحة هو مقامات الحريري نفسها.

2. 4 : المقامة الحلوانية(البعد عن الاحتيال):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	الثالثة والثلاثون ص 160	الثانية ص 24
الزمن	تدور الأحداث في يوم واحد	زمن متطاول
المكان	مدينة حلوان العراقية على طريق القافلين من الحج	بدأت في حلوان، وانتهت في مقر الحارث الذي لا نعلم أين هو
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام والبطل الإسكندري كانا مشاركين في الأحداث	كذلك كان الحارث والسروجي مشاركين في الأحداث
حضور الشعر	بيتان قالهما ابن هشام في الختام	سبعة عشر بيتا

في الحلوانية الهمذانية يكون ابن هشام عائدًا من الحج، فينزل حلوان، يريد الحجامة والحمام، فيتعارك حجامان على رأسه، ويهرب منهما إلى ثالثٍ، يكون مخبولا من الإسكندرية،كثير الهذيان، ووراءه فضل فصاحة.

فنفترض ضمنا أنه الإسكندري مع أنَّ عيسى لم يتعرفه، وكأنّه لا سابق معرفةٍ بينهما. فما دلالة هذا الجهل؟ ولماذا يكون الإسكندري مخبولا، لا محتالا ذكيا كعادته؟ ولماذا الشعر هذه المرة لابن هشام وليس للإسكندري كالعادة أيضا؟ فابن هشام ختم المقامة ببيتين من الشعر.

أمَّا حلوانية الحريري، فتبدأ في حلوان وهي تحكي صحبة أدبية بين الحارث والسروجي، كان الحارث فيها أشبه ما يكون بتلميذ للسروجي، ثم حين ساء حال السروجي، ارتحل، وتفارقا، وبعد زمن، عاد الحارث لبلاده، فوجد السروجي فيها وقد اغتاله الشيب، وهو كما كان صاحب أدب يتغلب على الشعراء. ولم يبدر فيها أي طلب للمال أو ادعاء للحاجة، وإن كان الحارث قد أشار في بداية المقامة إلى سوء حال السروجي، ولكنه لم يطلب مالا من أحد بشكل صريح.

سنجد إذن،أنّ المقامتين ابتعدتا عن الحيلة، واتخذتا طريقا مختلفا عن الفكرة السائدة (الاحتيال والكدية)، فمادلالة ذلك؟ إن كان خط الرؤية المقصود يقول: إنَّ الحريري قصد متابعة الهمذاني، وهو نصَّ على ذلك بنفسه، فما مقصده هنا؟

هل لأنَّ الإسكندري هذه المرة لا يحتال، ويكون مخبولا، فالسروجي كذلك لن يحتال، لكنه لن يكون مخبولا، بل سيكون سيد الفصاحة والبلاغة الذي يبهر الجمع بفصاحته، فبطل الهمذاني حين لا يحتال، فسيكون مخبولا ولا شك، لكن بطل الحريري حين لايحتال، فسيكون معلما وفصيحا وبليغا.

2. 5 : المقامة الساسانية (مفارقة المألوف):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	التاسعة عشرة ص 73	التاسعة والأربعون وقبل الأخيرة ص 536
الزمن	تدور الأحداث فيما لا يتجاوز ساعة من الزمن نهارا	لا يوجد حدث ليتخذ زمانا
المكان	مدينة دمشق	لم يتم تحديد مكان
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام والبطل الإسكندري كانا مشاركين في الأحداث	اكتفى الحارث بدور الراوي هنا لوصية أبي زيد لابنه
حضور الشعر	عشرون بيتا	خمسة أبيات

كان ابن هشام في ساسانية الهمذاني في أحد شوارع دمشق ينظر لمجموعة من الشحاذين يتقدمهم قائد يقول، فيعيدون، وهو يشحذ بالشعر والأدب، فتبعه ابن هشام حتى أزال تنكره، وعرف أنه الإسكندري، فسأله لماذا فعل ذلك، فكان جوابه شعرا، كما كانت مطلبته بالشعر([10]):

هذا الزَّمَانُ مَشُومُ كَمَا تَراهُ غَشُومُ

الحُمْقُ فِيهِ مَلِيحٌ والعِقْلُ عَيْبٌ وَلُومُ

والمَالُ طَيْفٌ، ولكِنْ حَوْلَ اللَّئَامِ يحومُ

أمَّا ساسانية الحريري التي تمثل ماقبل الأخيرة في سير المقامات، فكانت وصية من السروجي لابنه يعلمه طرق الحيلة والكدية، بعد أن شعر بدنو أجله.

وما يسترعي النظر هنا، هو كثافة الشعر عند الهمذاني مقابل قلته عند الحريري، في مفارقة للمألوف. وهي مفارقة لم تظهر في الشعر فقط، بل في الجماعة والفرد وتبادل الأدوار بين المقامتين في ذلك، فهنا كان الإسكندري مع جماعة من المتسولين وليس وحيدا كما في المقامات السالفة الذكر، بينما كان السروجي يوصي ابنه–وحيدا- وصية أصبحت دستورًا

لكل الساسانيين يتناقلونها بينهم. ويكتفي الحارث هنا بدور الراوي؛ فلا يكون مع صحبه البلغاء المعتادين، ويكون الشعر في هذه المقامة خمسة أبيات فقط ([11]):

خُذْها إليْكَ وصيّةً لمْ يوصِها قبْلي أحَدْ
عَرّاءَ حاويَةً خُلا صاتِ المَعاني والزُّبَدْ
نقّحْتُها تنْقيحَ منْ مَحَضَ النّصيحةَ واجتَهَدْ
فاعْمَلْ بما مثّلْتُهُ عمَلَ اللّبيبِ أخي الرَّشَدْ
حتى يقولَ الناسُ هـ ذا الشّبلُ منْ ذاكَ الأسَدْ

ونرى هنا استمرار الحريري في محاولة التفوق على ما جاء به الهمذاني، كما لو أن الأمر يتحول لديه إلى نوع من الهوس؛ لإثبات الذات في مقابل شبح الهمذاني الذي لا يغيب عنه.

فإن كان الهمذاني سيكثر من الشعر ليصل إلى سبعة عشر بيتا، وهو من اعتاد المقطعات، فإنَّ الحريري سيقلل الشعر إلى أقل حدوده عنده، لتكون خمسة أبيات، هي ختام در الكلام، كما يراه. وإن كان الإسكندري قاد مجموعة من المتسولين، فإنَّ السروجي سيوصيهم بوصية تكون قانون حياتهم ومبتغى آمالهم. وإن كان الإسكندري سيكون مقطوعا لا ذنب له، فإنَّ السروجي سيكون له سلالة يكملون مسيرته ويسيرون على نهجه. فيكون هناك أدب مقطوع لا راوي له، وهنا أدب مستمر متناسل، إبداعه لا يخبو وهجه.

2. 6 :الشيرازية (العلاقة المجهولة):

المقامة	مقامات الهمذاني	مقامات الحريري
ترتيبها	الثانية والثلاثون ص 157	الخامسة والثلاثون 372
الزمن	متطاول	يوم واحد
المكان	تبدأ في طريق اليمن وتنتهي في شيراز بفارس	شيراز
الشخصيات	الراوي عيسى بن هشام والبطل الإسكندريكانا	كان الحارث والسروجي مشاركين في الأحداث كذلك

	مشاركين في الأحداث	
حضور الشعر	-	تسعة عشر بيتا

شيرازية الهمذاني بدت مختلفة في امتداد زمنها وتنقلها من مكان إلى آخر، ولكن هذا الامتداد في المكان والزمان لم يُفهم سببه؛ لأنّه تم قطع المقامة من رواتها بسبب فحشها –كما قيل-والمقامة بدأت بصحبة بين الراوي والبطل في اليمن، ثم انقطعت العلاقة التي افتقده فيها ابن هشام، حتى عاد والتقاه في شيراز وقد تغيرت حاله، وكان سبب ما هو فيه هو امرأة تزوجها ثم طلقها، ثم بُترت الحكاية.

أمَّا شيرازية الحريري، فجاءت نمطية؛ فقد كان الحارث كعادته في مجلس أدبٍ وشعرٍ في شيراز، فجاءهم السروجي متنكرًا، وقد ظهر عليه أثر من قارب الثمانين، فاحتقره القوم لملبوسه الرث، لكنه خلب لبهم بفصاحته وشعره، فعرفه الحارث من أسلوبه، فلما استدر جيوب القوم بأنه يحتاج لدية من أجل شابة قتلها عن غير قصد، وكان الحارث على وشك اللحاق به ليعلم من تلك التي قتلها، نظر له السروجي، ثم مال عليه، وقال له شعرا يخبره بحل لغز ما قال، وأنه يقصد بالمقتولة "الخمر". ثم ختم حديثه بقوله: "أنا عربيد وأنت رعديد وبيننا بون بعيد"([12]).

وبسبب بتر مقامة الهمذاني، فالعلاقة بدت لنا غير واضحة بين المقامتين، هل لكون الخمر امرأة مقتولة في مقامة الحريري، علاقة بالمرأة في مقامة الهمذاني؟ هذا سيبقى مسكوتا عنه، لحين الحصول على ذاك المبتور لإقامة العلاقة، دون تمحلها.

3. في الختام... كان حديث:

ويبقى حديثٌ متناثرٌ عن الحقول التي جمعت بين المقامات التي تشابهت بين شيخينا بشكلٍ عامٍ، وهي تتركزُ في النقاط التالية:

3. 1 :ترتيب المقامات:

كانت المقامات حسب ورودها عند الشيخين على الشكل التالي:

الهمذاني	الحريري
الخامسة/ الكوفية	الثانية/ الحلوانية
الثانية عشرة/ البغدادية	الخامسة/ الكوفية

الثالثة عشرة/ البصرية الثالثة عشرة / البغدادية
التاسعة عشرة/ الساسانية الخامسة والثلاثون/ الشيرازية
الثانية والثلاثون / الشيرازية التاسعة والأربعون / الساسانية
الثالثة والثلاثون/ الحلوانية الخمسون / البصرية

وحسبما يُلاحظ، لم يكن لترتيب ورود المقامات كرقم تسلسلي عند الهمذاني، دورٌ في اختيار المتابعة عند الحريري، وقد يرجع ذلك إلى أنها لم تأتِ وفق ترتيب مخصوص عند الهمذاني، أو ربما لأنَّ الترقيم لم يشغل بال الحريري بقدر انشغاله بمضمون المقامة، فقد كانت غايته اتباع فكرة المقامة عن طريق اقتباس اسمها، لا اتباع رقمها.

وبعد الاتباع في الفكرة، كان الترتيب الرقمي في مقامتين اثنتين مهما عند الحريري. والمقصود أنه لا أهمية لمجيء الساسانية التاسعة عشرة عند الهمذاني، ولكن لذلك دلالة هامة في أنها قبل الأخيرة عند الحريري، كذلك لا أهمية لأن تكون البصرية الثالثة عشرة عند الهمذاني، لكن لها دلالة عميقة في أنها الأخيرة عند الحريري.

لأنَّ الحريري رتب هاتين المقامتين عن وعي، بالنظر إلى مكان المقامة ومناسبة المقال للمقام، فهو كان يستسقي فكرة ما من مقامة الهمذاني، ثم يرتب موقع المقامة وفقا لرؤيته الخاصة. ونقصد هنا تحديدا البصرية والساسانية، لأنَّ ماعدا ذلك من مقامات الحريري لم يكن لترتيبها علاقة بمضمونها. ويُضاف إلى المقامات ذات الترتيب المتعلق المضمون "الصنعانية" فقط([13]). بينما المقامات السبع والأربعون الباقية لا بأس من التقديم والتأخير فيها، من وجهة نظر الباحثة.

3. 2 :الزمن والمكان والحبكة:

تبدو فكرة الزمن والمكان أكثر امتدادا عند الحريري، منها عند الهمذاني ويرجع ذلك إلى أن الفكرة عند الحريري- أو ما يمكن تسميته بالحبكة تجوزا- أكثر تعقيدا.

فالحدث عند الهمذاني غالبا هو حدثٌ بسيطٌ ينتهي بسرعة، لكن الحدث عند الحريري أكثر تركيبا وامتدادا، قد يتم خلاله الانتقال من مكانٍ لآخر ومن زمن إلى آخر، بينما الهمذاني المقامة الوحيدة المشتركة التي امتد بها الزمان والمكان؛ بُترت، فلا يُعلم مغزاها من هذه المغايرة، ولماذا الحكاية عنده تتركب، وتحضر لها ذيول؟

3. 3 :الشعر:

إن حضور الشعر عند الحريري يفوق حضوره عند الهمذاني، إذ إن حضور الشعر تنازع مع النثر في مقامات الحريري، بينما كان مقطعاتٍ عند الهمذاني، وربما يرجعُ ذلك إلى فلسفة كل منهما الفكرية؛ فالهمذاني يريد أن يرفع من مقام النثر في مقابل الشعر، بينما الحريري يريد أن يثبت تفوقه في كل مجال على الهمذاني؛ لذا فهو سينثر أكثر منه، وسيقول شعرا أكثر منه.

الهوامش والمراجع

1) اعتمدنا في هذه الورقة البحثية نسخ المقامات التالية:

1. مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني-شرح: محمد محيي الدين عبدالحميد – دار الطلائع: القاهرة – 2011.

2. مقامات الحريري- تعليق وضبط: أحمد الطيبي- دار الكتب العلمية: لبنان – الطبعة السابعة: 2011.

2) الحيدري، بلند - "الواسطي رسم مقامات الحريري، فاختصر الفنون الإسلامية" – مجلة نزوى- مؤسسة عمان للصحافة: مسقط- العدد الثالث 1995.ص 134

3) مرتاض، عبدالملك (1988) فن المقامات في الأدب العربي،- الدار التونسية: تونس- الطبعة الثانية - ص 436.

4) السابق، ص438.

5) السابق، ص 441.

6) السابق، من ص 448 إلى ص451.

7) الحريري، ص 521-522.

8) الحريري، ص 12.

9) الحريري، ص47.

10) الهمذاني، ص 75- 76.

11) الحريري، ص546.

12) الحريري، ص 377.

13) لأن هذه المقامة -عند الحريري- هي الأولى في الترتيب والمضمون.